مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 15، عدد رقم:01، مارس 2026، صص: 453 - 468
تاريخ الاستلام(2025/11/20) تاريخ القبول (2026/02/13) تاريخ النشر (2026/03/30)

فكر اللّغويّين العرب القدامى من منظور اللّسانيّين العرب المحدثين

Ancient Arab Linguists' Thought from Modern Arab Linguists' Perspective

نعيمة كنّاز[1]

[1] جامعة عنابة (الجزائر)، naima.kennaz@univ-annaba.dz

ملخص:

لقد تعدّدت قراءات اللّسانيّين المحدثين للفكر اللّغوي العربي القديم؛ فكل لسانيّ قد قرأه وفق منظور تكوينه اللّساني الحديث (المدرسة اللّسانيّة الحديثة التي ينتمي إليها أوتأثّربها)، ونهدف من هذه الدّراسة إلى تبيان منظور ثلّة من اللّسانيّين العرب المحدثين للفكر اللّغوي العربي التّراثي، وكيفيّة تقييمهم لهذا الفكر. وقد توصّلنا إلى أنّ اللّسانيّين قد انقسموا إلى ثلاثة، فئة تؤكّد تقارب الفكر اللّغوي العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث، وثانية تؤمن بتخالف الفكرين، وثالثة ترى تباعد واختلاف الفكرين، وإلى أنّ الرّجوع إلى التّراث والنّصوص التّراثيّة، وقراءتها لا يعني الرّجوع دون عودة؛ بأن نبقى في طيّ مقارنة الفكر اللّغوي التراثي باللّسانيّات الحديثة، إذ يجب أن نبحث -نحن أيضا- في لغتنا العربيّة، ونطوّر دراستها بما يواكب تطوّرات عصرنا واستثمار تقنيّات وبرامج الذّكاء الاصطناعي في تطوير ونشر وخدمة البحث اللّساني العربي .

كلمات مفتاحية: الفكر اللّغوي العربي؛ اللّسانيّات الحديثة؛ اللّسانيّن العرب؛ منظور التقارب؛ منظور التّخالف؛ منظور التباعد

Summary:

The modern linguists' readings regarding ancient Arab linguistic thought have varied; each linguist has interpreted it through the lens of their contemporary linguistic formation (the modern linguistic school to which they belong or are influenced by). This study aims to clarify the perspective

المؤلف المرسل: نعيمة كنّاز، الإيميل: naima.kennaz@univ-annaba.dz

of a group of modern Arab linguists on traditional Arabic linguistic thought and how they evaluate it. We found that linguists can be divided into three groups: one that emphasizes the similarity between ancient Arabic linguistic thought and modern linguistic thought; a second that believes in their divergence; and a third that sees significant differences between the two thoughts. Furthermore, returning to the heritage and traditional texts does not mean going back without progression; we should remain engaged in comparing traditional linguistic thought with modern linguistics. We must also explore our Arabic language and develop its study in line with the developments of our era, utilizing technologies and artificial intelligence programs to enhance, publish, and serve Arabic linguistic research.
Keywords: Arabic linguistic thought; modern linguistics; Arab linguists; convergence perspective; divergence perspective; distancing perspective

1. مقدمة :

عكف اللّغويّون العرب على دراسة اللّسان العربي في جميع مستوياته : الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحويّة والبلاغيّة، وتتجسّد هذه الدّراسة في النّصوص المبثوثة المشكِّلة لأمّهات الكتب العربيّة ، الموَرِّثة للأجيال المتعاقبة (المهتمّون باللّغة)، ومع ظهور اللّسانيّات الحديثة ،وتأثيرها في فكر الجيل اللّساني العربي المطَّلِع -في الآن نفسه- على نصوص تراثة العربي ؛ أدّى هذا إلى تعدّد واختلاف قراءات هذا الجيل للنّصوص التّراثيّة الحاوية للفكر اللّغوي العربي؛ فمنهم من قرأ النّص العربي القديم على أنّه صورة للفكر اللّساني الغربي الحديث، لكن بألفاظ ومصطلحات عربيّة وليدة زمانها أمثال (عبد الرّحمان الحاج صالح وعبد السّلام المسدّي ومازن الوعر وميشال زكريّا وصالح بلعيد ومحمّد صاري)، ومنهم من قرأ النّص العربي التّراثي على أنّه خلاف ذلك؛ أي لا علاقة للفكر اللّغوي العربي بالفكر اللّساني الغربي؛ في صدارتهم "تمّام حسان"، ومنهم من لا يؤمن – أصلا – بمحاولة المقاربة أو المقارنة بين الفكرين؛ أي بين النّصّين العربي و الغربي، إمّا لعدم جدوى هذه القراءة ،أو لأنّ لكلّ من الفكرين منطلقا وهدفا مغايرا للآخر أمثال (مصطفى غلفان وعبد السّلام شقروش) .

وبناء عليه نسعى من خلال هذه الورقة البحثيّة -بإذن الله تعالى - إلى محاولة الوقوف على قراءة وتخريجات هؤلاء اللّسانيّين العرب المحدثين للفكر اللّغوي التّراثي، ومنه نظرتهم وتقييمهم للفكر اللّغوي العربي، لذلك يهدف بحثنا إلى الإجابة عن الإشكاليّة التّالية:

ما منظور اللّسانيّين العرب المحدثين للفكر اللّغوي العربي التّراثي؟ ومنه كيف قرأ الدّارسون المحدثون النّص العربي التّراثي (الفكر اللّغوي العربي) في مقارنته مع النّص اللّساني الغربي (الفكر اللّساني الغربي)؟

وتهدف هذه الدّراسة إلى إبراز أهميّة الفكر اللّغوي العربي القديم، وعلاقته باللّسانيّات الحديثة، من أجل هذا اعتمدنا المنهج الوصفي المدعّم بآليّتي التّحليل والمقارنة.

2.المنظور الأوّل: تقارب الفكر اللّغوي العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث

يرى الكثير من اللّسانيّين العرب من خلال قراءاتهم للنّصوص التّراثيّة العربيّة أنّ جلّ ما جاء به اللّغويّون القدامى يتقاطع مع ما جاءت به اللّسانيّات الحديثة، ومن روّاد هذا المنظور: عبد الرّحمان الحاج صالح وعبد السّلام المسدي ومازن الوعر وميشال زكريّا ومحمّد صاري وغيرهم.

1.2 منظور عبد الرّحمان الحاج صالح:

لقد ذهب "عبد الرّحمان الحاج صالح" –رحمه الله تعالى- إلى أنّ القدامى قد تعرّضوا للعلاقة بين الدّال والمدلول، وتفطّن أكثرهم إلى أنّ المعاني الّتي تدلّ عليها ألفاظها بالوضع ليست تابعة مباشرة للأشياء المدلول عليها، وهذا ما قاله "سوسير" (Saussure) بأنّ الدّليل اللّغوي لا يربط شيئا باسمه بل يربط مفهوما بصورة صوتيّة، ويتجسّد هذا – حسب "الحاج صالح" – في النّصوص الواردة في كتاب "المزهر" للسيوطي، وفي كتابات لغويّي النّصف الأوّل من القرن الثّالث؛ كالأخفش والمازني وعباد بن سليمان الصّيمري والجاحظ.[1]

وقد أكّد "الحاج صالح " أنّ اللّغويّين العرب قد اعتمدوا على منهجيّة علميّة في جمع المادّة اللّغويّة؛حيث حصروا دراستهم في مكان (شبه الجزيرة العربيّة) وزمان محدّدين (فترة الفصاحة الممتدّة من مائة وخمسين سنة قبل الإسلام إلى ما يماثلها بعد الإسلام)،وهذا من أهمّ مبادئ اللّسانيّات الوصفيّ[2] ،ثمّ إنّ اللّغويّين القدامى قد اعتمدوا -أيضا - على أهم آليّة من آليّات المدرسة الوصفيّة السّوسوريّة؛ وهي اعتمادهم على اللّغة المنطوقة في جمع المادّة اللّغويّة، ومن يدّعي بأنّ نظرتهم للّغة غير علميّة بحجّة أنّهم معياريّين، لحصرهم المدوّنة في معيار الفصاحة، ولأنّهم لم يدرسوا اللّغة العربيّة لأجل ذاتها، بل لأسباب دينيّة واجتماعيّة في مقدّمتها "القرآن الكريم"؛ فهذا -حسب الحاج صالح- غير سوي؛ لأنّه لكلّ حركة علميّة

دوافعها[3]، و« لأنّ العلم يقاس بمقياسين اثنين وهما: المشاهدة والاستقراء والاختبار من جهة والصّياغة العقليّة من جهة أخرى»[4]،كما أكّد الحاج صالح أنّ النّحّاة العرب قد استوفوا مفهوم "التّحويل" (Transformation) الّذي ورد عند اللّساني "تشومسكي" ؛بل تجاوزوا التّحويل التّقديري إلى التّحويل غير التّقديري ؛ف: « المدرسة التّوليديّة في النّظريّة"Standard" لا تعرف إلاّ نوعا واحدا من التّحويل وهو الّذي يربط بين ما يسمّونه بالبنية العميقة والبنية السّطحيّة.فهذا نظيره في النّظرية العربية هو التّحويل التقديري (...) إلاّ أنّ النحاة العرب لم يكتفوا بالتّحويل التّقديري بل عمّموا التّحويل غير التّقديري وأجروه على التّحويل بأجمعه...»[5]

وما ورد في كتاب "سيبويه"(ت180هـ) في باب "الاستقامة والمحال من الكلام" وما يترتّب على ذلك من التّفريق المطلق بين ما يرجع إلى اللّفظ وبين ما هو خاص بالمعنى "، قد قسّم فيه "سيبويه" الكلام إلى مستقيم حسن ومحال ومستقيم كذب ومستقيم قبيح ومحال كذب بناء على استحسان النّاطق الأصلي باللّغة، وهذا ما عبّرت عنه اللّسانيّات التّوليديّة بمفهوم " الاستحسان"(L'acceptabilité) المتعلّق بما سمّاه "تشومسكي" (Chomsky) بالنّاطق الأصلي باللّغة (Native Speaker)[6]، أضف إلى ذلك أنّ «التّوليديّين من اللّسانيّين ينطلقون في تحليل الجملة ممّا يسمى (Noun-phrase وVerb-phrase) أي المركب الاسمي والمركب الفعلي (...) شبيه بالتّحليل العربي إلى مسند ومسند إليه، إلاّ أنّ هذا يخص الجملة كوحدة ذات وظيفة إفاديّة (Informational Function) ولا ينظر أصحابه فيه إلى بنية اللّفظ في ذاته إذ هناك بنية أخرى غير المسند والمسند إليه...» [7]

وفي مقارنة أجراها "الحاج صالح" بين الفكر النّحوي العربي وبين الفكر اللّساني البنوي توصّل إلى أنّ الفكرين يتماثلان فيما يلي:[8]

- اتّخذ كلّ منهما اللّغة موضوعا في ذاتها وأداة للتّبليغ؛ من خلال نظرة آنيّة زمنيّة (Synchronic).

- يبحث كلاهما في تحليل اللّغة إلى أجزائها الكبرى والصّغرى، وفي كيفيّة ترتيب هذه الأجزاء بعضها مع بعض.

- يجعل كلّ منهما المشاهد المسموع؛ أي الأقوال اللّغويّة المجموعة بالفعل مادّةَ البحث "المدوّنة" (Corpus)، والمنطلق لكلّ تحليل، والفرق بينهما –فقط- أنّ النّحاة قد عمدوا إلى

التّحليل والتّفسير اللّغوي بوسائل عقليّة قد لا تعرفها البنويّة، واتّخذوا (النّحاة) السّماع مرجعا أساسا في كلّ دراساتهم اللغوية كما أنّ البنويّة قد اختصّت بالمدوّنة اللّغويّة المغلَقة.

●تُحاول اللّسانيّات البنويّة فهم الظّواهر اللّغويّة باللّجوء إلى مبدأ الاقتصاد (ميل المتكلّم إلى التّقليل من الجهود العضليّة والفكريّة في عمليّة التّخاطب)، وقد نحا اللّغويّون العرب هذا المنحى - أيضا- من خلال لجوئهم إلى مبدأ "الاستخفاف اللّغوي " في تفسير ظواهر كثيرة مثل (الحذف والإدغام والاختلاس والقلب والإبدال والإعلال).

ويرى " الحاج صالح" أنّ اللّغويّين العرب القدامى قد تفطّنوا إلى خاصيّة الأنماط والمثل في اكتساب اللّغة عند الطّفل، وهذا ما نجده في الفكر التّوليدي التّحويلي، وفي هذا يقول "الحاج صالح" :"لاحَظ –ههنا- الباحثون أنّ الطفل لا يكتسب المهارة التركيبية بحكايته لما يسمع من الكلم والجمل نفسها، بل من حكاية العمليات المحدثة لها؛ أي باكتساب الأنماط والمثل لا ذوات، وهذا قد لاحظه علماؤنا القدامى فقد قال ابن جني عن النحو«إنّه انتحاء سمت كلام العرب"(الخصائص 34/1)...».[9]

2.2 منظورعبد السّلام المسدّي:

يرى "عبد السّلام المسدّي" أنّه من المجحِف إبعاد الفكر اللّغوي العربي عن الفكر اللّساني الغربي، بحجّة معياريّة الأوّل على خلاف وصفيّة الثّاني، وكلّ هذا لأنّ اللّغويّين العرب حصروا دراستهم في اللّغة الواحدة (اللّغة العربيّة)، وإنْ نظرت الحضارة العربيّة في لغتها فهذا أمر بديهي؛ فما من أمّة فكّرت في قضايا الظّاهرة اللّغويّة عامّة إلاّ وقد انطلقت في بلورة ذلك من النّظر في لغتها النّوعيّة، فهذا ما أُثِر عن رائد الفكر اللّساني التّوليدي التّحويلي "تشومسكي"[10]، وحتّى وإن كانت الدّراسات العربيّة معياريّة فهذا لا يُبعدها –حسب المسدّي- عن اللّسانيّات الحديثة، فالوصفيّة والمعياريّة ليستا متناقضتان لأنّهما موقفان لا يقعان البتّة في اللّحظة الزّمنية نفسها بل يصوغهما منظاران مختلفان؛ فالنّحو(جملة القواعد الخفيّة المحرّكة لظواهر اللّغة وعمليّة تفسير الإنسان لنظام اللّغة بمعطيات المنطق) واللّسانيّات ليسا ضدّان، وإن دعا اللّساني إلى خرق قواعد ومعايير استعمال اللّغة لكانت هذه المعياريّة بعينها.[11]

وفي مقارنة أجراها "المسدّي" بين النّحو العربي واللّسانيّات -على غرار "الحاج صالح"- توصّل إلى عدم تباعد أو تناقض الفكرين؛ فالنّحو قد سبق اللّسانيّات في اتّخاذ اللّغة موضوعا للعلم، واللّسانيّات لا تنفي علم النّحو ولا تنقضه، بل إنّ وجودها متوقّف قطعا على وجوده(النّحو)؛ إذ لا معنى للبحث اللّساني ما لم نستنبط نظام اللّغة عن طريق استخراج مؤسّستها النّحويّة...[12]

كما أكّد "المسدّي" أنّ المتمعِّن في النّصوص التّراثيّة العربيّة سيجد أنّ فكرة "اعتباطيّة اللّسان" الّتي وردت في الفكر البنوي الحديث عند "سوسير" قد تطرّق إليها اللّغويّون العرب القدامى، أمثال (ابن حزم والفارابي والقاضي عبد الجبّار)؛ وآية ذلك إلحاح الفرابي في هذا المدار على انتفاء صبغة المماثلة بالطّبع والخليقة بين مظاهر الكلام البشري على اختلاف أشكاله وما هو موضوع للدّلالة عليه، لذلك تعذّر أن تكون علاقة اللّغة بمعانيها علاقة محاكاة ولا حتّى مقاربة بالتّماثل النّسبي، ويؤكّد الفرابي أنّ الألفاظ « ليست تحاكي شيئا من المعاني أصلا ولا عرضا من أعراضه».[13]

بل إنّ نصوص اللّغويّين العرب التّراثيّة تدلّ على تطرّق العلماء العرب لموضوع الاكتساب اللّغوي (Language acquisition) الّذي يُعدّ أهم قضايا اللّسانيّات النّفسيّة (Psycholinguistics)؛ إذ أوّل ما يدلّ على ذلك تعريفهم للّغة بأنّها "ملكة" و"الملكة تعني القدرة على اكتساب ما لم يكن مكتسَبا بضرب من التّملّك والتّحيّز"،وما يدلّ على ذلك –أيضا – :

- تأكيد "ابن جنّي" على أنّ اللّغة في أصل وضعها تمارَس بالطّبع.
- إدخال "أبو حيّان التّوحيدي" عنصر "الغريزة" في اكتساب اللّغة.
- ربط "ابن وهب" اكتساب اللّغة بقانوني "العادة" و"السّجيّة" بالاعتماد على مبدأ "المران"،وقد نحا "الفرابي" نحوه.
- جعل "ابن قتيبة" "السّماع" مفتاح اكتساب اللّغة، بل هو مفتاح تلقّي العلوم والمعارف جملة، ثمّ وصف الكلام بأنّه أحوج المحصولات إليه، فـ "ابن جنيّ" و "أبو حيّان التّوحيدي" ماثَلا الفكر التّوليدي، في التّأكيد على أنّ اكتساب اللّغة يتعلّق بالعوامل الدّاخليّة، بخلاف "ابن وهب" و"الفرابي" و"ابن قتيبة" الّذين ماثَلوا الفكر البنوي السّلوكي في التّأكيد على أنّ اكتساب اللّغة مردّه العوامل الخارجيّة.14

- قول ابن حزم الأندلسي :"وقد توهّم قوم في لغتهم أنهم أفضل اللّغات، وهذا لا معنى له ..." يدلّ على أنّ القدامى العرب قد تفطّنوا إلى عدم تفاضل اللّغات، وهذا يماثل ما أكّد عليه اللّسانيّون الوصفيّون – حديثا-.

- قول الجاحظ "أنّ المعاني تفضل الأسماء، والحاجات تجوز مقادير السّمات وتفوت ذرع العلامات" يماثل فكرة "أندري مارتيني" الاقتصاد اللّغوي؛ أي أنّ ظاهرة تولّد المفاهيم والصّور الذّهنيّة أسرع حركة وأضخم حجما من طاقة اللّغة على توليد الألفاظ المستحدَثة على الدّوام.[15]

3.2 منظور" مازن الوعر":

يرى "مازن الوعر" أنّ «الضّوابط النّحويّة المعبَّر عنها بالانجليزيّة (Contraints) والّتي استخدمها تشومسكي في نظريّته الأخيرة (Government and binding theory) نظريّة العامل والرّبط الإحالي؛ إنّما تشبه تماما الضّوابط النّحويّة الّتي وضعها نحّاتنا مفرقين بينها وبين القاعدة (...) فقد ميّز العالم النّحوي الفذ "ابن يعيش" بين القاعدة النحويّة والضابط النحوي فالعوامل النحوية –مثلا- هي قواعد نحوية (...) والضابط النحوي الذي يضبط هذه القواعد النحوية.»[16]

ثم إنّ الجاحظ (ت255ه) قد تعرّض للكثير من المسائل الّتي تناولتها اللّسانيّات الاجتماعيّة(Sociolinguistics) مثل: (مسألة تأثير المحيط والعوامل الاجتماعيّة على كلام الشخص المنتمي لهذا المحيط، وقد وصف "الجاحظ" هذا باللّكنة، وهذا ما يسمّى بالعادات النّطقيّة – حديثا-)[17]

ويرى -أيضا - "مازن الوعر" أنّ رسالة "أسباب حدوث الحروف" لابن سينا تمثّل استشهادا على البعد الفيزيولوجي للصّوتيّات العربيّة، وكذا أعمال علماء التّجويد كالشّاطبي والزمخشري وابن الحاجب تجسّد البعد السّمعي في الصّوتيّات العربيّة، أضف إلى ذلك أنّ أعمال علماء الرّياضيّات العرب تمثّل -هي أيضا- استشهادا على البعد الفيزيائي للصّوتيّات العربيّة[18]، ويؤكّد أنّ التّقديم الّذي على نيّة التأخير، والتّقديم الذي ليس على نية التأخير عند "الجرجاني" و "السّكاكي" يشبه "نظريّة "الأثر" (Trace Theory) عند "تشومسكي"؛ أي التّقديم الّذي يمكنه أن يُحدث أثرا لغويّا،[19]وإنّ ما نصّ عليه قول "الجاحظ" في كتابه

"الحيوان" أنّ "اللّغة إلهام واصطلاح في الآن نفسه" يقصد به بالضّبط ما قصده "تشومسكي" بالقدرة اللّغويّة.[20]

وقد أثبت "مازن الوعر" من خلال قراءته لنصوص "الجاحظ" أنّ هذا العالِم العربي قد أُثِر عنه الكثير من القضايا الّتي تناولها اليوم علم أمراض الكلام (language pathology)، واللّسانيّات البيولوجيّة؛ وآية ذلك – مثلا- تقسيمه لمراتب اللّثغة وفق معيار اجتماعي، وإدراكه أنّ بعض الظّواهر المرضيّة في الكلام هي ظواهر وراثيّة أكثر منها ظواهر اجتماعيّة، وماثل هذا ما توصّلت إليه البحوث اللّسانيّة المعاصرة؛ أنّ هناك استعدادا قويّا لظهور المرض اللّغوي خلال أجيال متعاقبة تنتمي إلى أسرة واحدة من نسل واحد، وربّما هذا ما جعل بعض الباحثين يعتقدون أنّ العامل الوراثي هو عامل فعّال في عمليّة التّلعثم اللّغوي.[21]

4.2 منظور"ميشال زكريا":

يُؤكِّد "ميشال زكريا" أنّه يوجد تماثل بين الفكرَين العربي والغربي حول مسألة "الاكتساب اللّغوي " وفي هذا يقول: « إنّ قراءة نصوص التّراث العربي قراءة معاصرة تُظهر لنا أنّ مسألة اكتساب اللّغة قد أثارت اهتمام بعض اللّغويّين وعلماء الكلام والفلاسفة العرب وإن لم يولوها عنايتهم المباشرة، ولئن حاولنا تتبّع ظاهرة الاكتساب كما تتكشف لنا في بعض هذه النّصوص، فإنّ أوّل ما يتبين لنا أنّ علماء العرب لم ينقسموا في تحليلهم لهذه الظّاهرة الإنسانية الانقسام الّذي نلاحظه في نظريّات الاكتساب اللّغوي الحديثة في ما يختص بإقرار العامل الأساسي القائم وراء عملية الاكتساب هذه (البيئة أم القدرات الفطرية)، بل بالإمكان الملاحظة أنّ الفكر العربي قد أقر بوجوب توافر هذين العاملين معا ليحصل الاكتساب...»[22] ؛ ومثال ذلك مقارنته بين فكر "ابن خلدون" و"تشومسكي" حول هذه المسألة، وممّا توصّل إليه أنّ الفكرين متقاربان في:[23]

- تعريف اللّغة من حيث أنّها ملكة.
- التّمييز بين الملكة وبين صناعة اللّغة عند "ابن خلدون" وهذا ما عبّر عنه "تشومسكي" بالتّمييز بين الملكة اللّسانيّة والأداء الكلامي.
- النّظر للملكة اللّسانيّة على أنّها صفة راسخة في نفس الإنسان.
- الاعتقاد بسبق الملكة الأولى ورسوخها وبنقصان أيّة ملكة لسانيّة لاحقة، وهذا يجسّده قول "ابن خلدون" :"(...) أنّ الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلاّ

ناقصة مخدوشة ..."، وورد الاعتقاد نفسه عند "تشومسكي" الّذي لا يأخذ إلاّ بالحدس اللّغوي لمتكلّم اللّغة في لغته الأم أي بالملكة الأولى.

5.2 منظور "صالح بلعيد":

عقد "صالح بلعيد" مقارنة بين اللّغوي العربي "الجرجاني"(ت 472ه) واللّسانيّين المحدَثين الغرب، وهم (سوسير وتشومسكي ومارتينيه)، وقد توصّل من خلال قراءة النّصوص المأثورة عن الجرجاني، والّتي استشهد بها على تقارب الفكرين اللّسانيّين العربي والغربي؛ وممّا توصّل إليه بعد المقارنة بين :[24]

-الجرجاني وسوسير (Saussure):

- أكّد سوسير أنّ وظيفة اللّغة الأساسة هي التّبليغ والتّواصل، وهذا يوحي به قول الجرجاني:"أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللّغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسنا،ولكن لأن ينظمّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد".
- رفض "سوسير" أن تكون العلاقة بين الدّال والمدلول علاقة طبيعيّة، وإنّما هي علاقة اعتباطيّة وبذلك فاللّغة مواضَعة، وهو الّذي عبّر عنه قول الجرجاني: "ومن هذا الّذي يشك أنّا لم نعرف الرّجل والفرس والضّرب والقتل إلاّ من أسامیها ؟ لو كان لذلك مسمّى في العقل لكان ينبغي إذا قيل: زيد، أن تعرف المسمّى بهذا الاسم من غير أن تكون قد شاهدته أو ذُكر لك بصفة".

-الجرجاني وتشومسكي (Chomsky) :

- انطلقت نظريّة النّظم للجرجاني من اعتبار الجملة هي الوحدة اللّغويّة الأساسة، ويصدق هذا على نظريّة "تشومسكي".
- ميّز "الجرجاني "في الجملة بين البنية الظّاهريّة (البنية السّطحيّة عند تشومسكي) وبين البنية العميقة، وأشار إلى القواعد التّحويليّة الّتي تربط بينهما -وحسب صالح بلعيد - فلم يتوسّع "الجرجاني" في الشّرح لأنّ هذا كان معروفا جيّدا منذ بداية النّحو.

2.2 منظور "محمّد صاري":

يُعدّ "محمّد صاري" مِن الّذين يؤمنون بتقارب الفكرين العربي التّراثي القديم والغربي الحديث، ولا أدلّ على ذلك مجموعة الانتقادات الّتي وجّهها، وعلّق بها على الحجج الّتي احتجّ

بها بعض اللّسانيّين الّذين يومنون بتخالف الفكرين؛ حيث عدّ هذه الحجج لا تخرج عن نطاق " الأحكام والنّتائج الّتي تدّعي العلميّة، وتُظهر التراث اللّغوي وكأنّه الطّرف النقيض للّسانيات الحديثة"[25]، ومن ردوده على هذه الحجج ما يلي:

- ردّ على من احتجّ بأنّ الإعراب والعلل النّحويّة من حيل النّحاة، وتثبت معياريّتهم وعدم علميّة دراستهم؛ بأنّ للإعراب أهميّة كبيرة في الفصل بين المعاني، وأنّ العلل النّحويّة لا يمكن أن تكون حيلا من افتراء النّحاة، ولا يمكن أن تكون حيلة منسوجة بهذه الدّقّة وهذا الشّمول ، فهي تفسيرات علميّة في منظور "ابن جني"، وهي -حسب محمّد صاري - لا تقل قيمة عن التّفسيرات والافتراضات الّتي تقوم عليها النّظريّات اللّسانيّة الحديثة.[26]
- ردّ على من يطالب بإلغاء نظريّة "العامل النّحوي" مثل "تمام حسّان"، بأنّها محاولة جريئة؛ «لأنّها أرادت أن تعيد ترتيب الأفكار اللّغوية المرتّبة بإلغاء نظريّة العامل، والواقع أنّ فكرة العامل النّحوي فكرة رياضيّة بديعة أهّلت النّحاة لكي يكونوا لسانيّين قبل أن تنشأ اللّسانيات.»[27]

3.المنظور الثّاني: تخالف الفكر اللّغوي العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث

أبرز من مثّل هذا الاتجاه "تمّام حسّان"؛ حيث أكّد بعد دراسته ونقده للأصول الّتي اعتمدها اللّغويّون العرب في استنباط النّحو العربي، أنّهم كانوا معياريّين وبعيدين عن المنهج الوصفي العلمي، ومثال ذلك: اعتمادهم على "التّعليل"، لأنّ المنهج الوصفي يسعى للإجابة عن "كيف" وليس للإجابة عن "لماذا"، وأنّ "العلّة" ليست من نشاط اللّساني بل هي من نشاط المعلِّم ليُفهم طلبته أسباب حكم معيّن أو قاعدة معيّنة.[28]

كما عاب –أيضا- على النّحاة خلق القواعد كما عبّر عنها بـ(المستوى الصّوابي مقياس الصّواب والخطأ)، ومحاولة جعل هذه القواعد معيارا يقوّم ألسنة المتكلّمين واستعمالهم، لأنّ المستوى الصّوابي يحدِّده المجتمع لا الباحث اللّغوي، وأَدَلَّ بهذا على معياريّة الفكر اللّغوي العربي، وهذا -حسب تمام حسّان - مخالف تماما للفكر اللّساني الغربي الحديث.[29]

وقد حصر "تمام حسان" معياريّة الفكر اللّغوي العربي -الّتي تُناقِضه عن الفكر اللّساني الغربي- في أربعة أمور:[30]

- اعتمادهم القياس والتّعليل.
- احتكامهم إلى مستوى صوابي معيَّن.

- إيمان علماء العربيّة بأنّ السّليقة اللّغويّة طبع لا اكتساب.

إغفالهم الجانب الفردي والاجتماعي في التّحليل اللّغوي.

وفي تقييم "تمام حسّان" للمدوّنة اللّغويّة العربيّة المسموعة، أكّد أنّ المسموع في الدّراسات اللّسانيّة العلميّة لا بدّ أن يكون حسيّا (لغة حيّة تُتَداوَل) -كما هو الحال في الدّراسات اللّسانيّة الغربيّة الحديثة- ، ولا يجب أن يكون هذا المسموع مدوّنا أو مرويّا -كما هو الحال في المدوّنة الّتي اعتمدها النّحاة في دراساتهم اللّغويّة- ؛ فالمسموع المأخوذ مباشرة بمشافهة الفصحاء العرب قد حوّله اللّغويّون العرب إلى مكتوب، وقد استدلّ (تمّام حسّان) على ذلك بقول "الكسائي" أنّه استنفد خمسة عشر قنينة حبر في الكتابة عن الأعراب، كما أنّ علماء العربيّة لم يصنّفوا ولم يجرّدوا ولم يحلّلوا الظّواهر اللّغويّة بعد سماعها مباشرة، وإنّما بعد تدوينها، فالنّص المحلَّل –آنذاك- كان لغة مكتوبة وليست منطوقة، وبالتّالي لم يستطع هؤلاء العلماء إجراء نظام صوتي بالمعنى العلمي الحديث.[31]

4.المنظور الثّالث: تباعد الفكر اللّغوي العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث

يمثّل هذا الإتّجاه :"مصطفى غلفان وعبد السّلام شقروش"، إذ يؤكّد "مصطفى غلفان" أنّ انحصار الدّرس اللّغوي العربي الحديث في قراءة التّراث، ومقارنته بالفكر اللّساني الغربي الحديث لا جدوى منه، ولا يقدِّم نفعا منهجيّا أو نظريّا جديرا بالمتابعة، ولا يؤمن "غلفان" بهذه المقارنة أصلا؛ لأنّها –حسبه- غير علميّ، إذ لم تتجاوز التّأمّلات والانجذاب العاطفي والتّمجيد اللاّمشروط.[32]

ويرى "عبد السّلام شقروش" أنّ منطلق الدّراسات اللّغويّة العربيّة كان دلاليّا (اهتمامهم بالمعنى)، وآية ذلك أنّ غرض النّحو فهم النّص القرآني، في حين منطلق الدّراسات اللّسانيّة البنيويّة الحديثة كان المبنى (إعادة النّظر في ماهية اللّغة واللّغة عندهم نظام والمهم هو دراسة بنيتها الشّكليّة)، وحسب "عبد السّلام شقروش" فإنّ اختلاف المنطلقات يؤدّي حتما إلى اختلاف الرّؤية والمنهج، ومنه فالفكران اللّسانيّان العربي والغربي متباعدان، بل إنّ أي جهد يروم التّوفيق بين النّظريّتين العربيّة القديمة والغربيّة الحديثة هو جهد تلفيقي لا يقدّم كثيرا ولا قليلا للدّراسات اللّغويّة.[33]

5. خاتمة:

يتّضح ممّا تقدّم من عرض منظور كلّ لساني عربي معاصر في قراءة النّصوص التّراثيّة العربيّة أنّ:

- "عبد الرّحمان الحاج صالح" و"عبد السّلام المسدّي" أكثر من استشهدوا بالنّصوص التّراثيّة لجلّ اللّغويّين العرب القدامى في مختلف المجالات (النّحو والصّرف والبلاغة والأدب والفقه...) في تأكيد تقارب وتماثل الفكر العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث.

- جلّهم قد قرأ الفكر التّراثي وفق المدرسة اللّسانيّة الحديثة الّتي تأثّر بها؛ مثل "ميشال زكريّا" الّذي ركّز على مقاربة الفكر العربي القديم بالفكر التّوليدي التّحويلي، ومعلوم أنّه مختصّ في اللّسانيّات التّوليديّة التّحويليّة، و"تمّام حسّان" ركّز في نقد التّراث على بيان جوانب معياريّته عكس الوصفيّة، ومعلوم أنّه خرّيج المدرسة الوصفيّة بامتياز، في حين نجد "الحاج صالح" و"المسدّي" لم ينحازا لمدرسة حديثة في قراءة التّراث دون غيرها.

- لقد وصف "تمّام حسّان" الفكر العربي بالمعياري، في حين نجده في مقدّمة كتابه "الأصول: دراسة ابستيمولوجيّة للفكر العربي"، قد أسقط جميع مبادئ الدّراسة الوصفيّة العلميّة (الاستقراء النّاقص والضّبط والشّمول والتّماسك والاقتصاد) على عمل النّحاة، وأقرّ باستيفائهم لهذه المبادئ، وصنّف "النّحو" من مصاف الصّناعة العلميّة -على حدّ تعبيره ـ[34].

- كما أنّه يعيب على النّحاة -كما سبق - خلق القواعد (المستوى الصّوابي)، ويُدِلّ به على معياريّة الفكر العربي، ثمّ في كتابه "مناهج البحث في اللّغة" يتمنّى خلق هذا المستوى الصّوابي، بل وتوحيده؟ بقوله: «وكم أجد في نفسي أمنية حارّة أن ينظّم المجمع اللّغوي دراسات للتّنغيم تنتهي بخلق مستوى صوابي موحّد للقراءة والإلقاء في البلاد العربيّة كلّها، حتّى لا تكون العربيّة الفصحى خاضعة في كل إقليم للعادات النّطقية العامية، وحتّى لا يجد العربي غرابة في إلقاء أخيه العربي، فيكون أقدر على فهمه»[35]، والسّؤال هو: كيف يتمنّى ما نهى عن مثله في الدّراسة الوصفيّة العلميّة، وهو "القواعد في زمان النّحاة الأوائل"، ثمّ يريدنا أن نأتي مثله في زماننا المعاصر؟ ثمّ أليست الدّراسات الّتي سيقوم بها المجمع اللّغوي لضبط قواعد في تقويم الأداء الصّوتي العربي هي من عمل الباحثين واللّغويّين، أم أنّها من تحديد وعمل المجتمع؟

- أمّا الرّأي بأنّ " التّدوين" لم يُتِح للقدامى دراسة صوتيّة متماسكة، فهذا (في رأيي) مغالى فيه؛ فلو نظرنا إلى النّحاة خاصّة المشتغلين بالمستوى الصّوتي، لوجدنا أنّ جلّهم -إن لم نقل كلّهم- علماء وأئمّة قراءات قرآنيّة، خذ –مثلا- "ابن جنّي" (صاحب كتاب المحتسب في القراءات الشّاذّة)، بل خذ " الكسائي" و"أبو عمرو بن العلا"، أليسا صاحبا قراءتين ؟ وهما إماما الكوفة والبصرة في النّحو؟، وباعتبار أنّ هؤلاء العلماء وغيرهم أصحاب أو علماء في القراءات، فلا بدّ أنّهم يتقنونها كما سمعوها عن النّبي -صلّى الله عليه وسلّم- بالتّواتر؛ معنى هذا أنّ استنباطهم للأحكام الصّوتيّة سيكون مباشرا من قراءاتهم، إن لم تكن من قراءة غيرهم (منهج العَرض)، وندرك جيّدا أنّ القراءات القرآنيّة مصدر ثر وموثوق منه في إنشاء دراسات صوتيّة دقيقة ومتماسكة.

ومنه لابدّ أن يأخذ الباحثون بالمنظور الأوّل (تقارب الفكر اللّغوي العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث) في الاستدلال على قيمة تراثنا اللّغوي، وفي التّعريف بهذه القيمة للأجيال، وفي انتحاء سمت علمائنا الّذين لم يتوانوا في دراسة اللّغة العربيّة دراسة علميّة بما توفّر في زمانهم من تقدّم فكري وعلمي، وأن ندرس نحن –كذلك- هذه اللّغة باعتماد ما توصّل إليه التّقدّم العلمي الحديث؛ كاستثمار وتوصيف اللّغة العربيّة في الحاسوب، وكاعتماد المخابر اللّغويّة والصّوتيّة الحديثة وبرامج الذّكاء الاصطناعي في دراسة وفي تعليميّة لغتنا العربيّة، وحتّى وإن أخذنا بالمنظور الثّاني (تخالف الفكر اللّغوي العربي القديم مع الفكر اللّساني الحديث) وآمنّا بعجز القدامى عن دراسة لغتنا دراسة علميّة وصفيّة -كما يُدَّعى -، فلا يجب أن نقف عند هذا العجز، فلماذا لا نأتي بما لم يأتِ به الأوائل؟

وخلاصة القول، إنّ الرّجوع إلى التّراث والنّصوص التّراثيّة، وقراءتها لا يعني الرّجوع دون عودة؛ بأن نبقى في طيّ مدح أو ذم أعمال القدامى، ازو مقارنتها باللّسانيّات الحديثة، إذ يجب أن نبحث -نحن أيضا- في لغتنا، ونطوّر دراستها بما يواكب تطوّرات عصرنا واستثمار تقنيّات وبرامج الذّكاء الاصطناعي في تطوير ونشر وخدمة البحث اللّساني العربي .

6. الإحالات والهوامش:

[1] يُنظر: عبد الرّحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، موفم للنشر، الجزائر، 2007، الجزء الأوّل، ص 127.

[2] للتّوسّع يُنظر: عبد الرّحمان الحاج صالح، السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 335 وما بعدها.

[3] يُنظر : عبد الرّحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، الجزء الأوّل، ص 213 وما بعدها.

[4] عبد الرّحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، ص214.

[5] عبد الرّحمان الحاج صالح، المرجع نفسه ،ص 215 -216.

[6] للتّوسّع: يُنظر: عبد الرّحمان الحاج صالح، المرجع نفسه، ص218، ويُنظر: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، موفم للنّشر، الجزائر،2007، الجزء الثّاني، ص 29 وما بعدها.

[7] عبد الرّحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، الجزء الأوّل، ص309.

[8] للتّوسّع: يُنظر: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، الجزء الثاني، ص24 وما بعدها.

[9] بحوث ودراسات في علوم اللّسان، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص 218.

[10] يُنظر: عبد السّلام المسدّي، التفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا، تونس، ط2 ،1986، ص 24.

[11] يُنظر: عبد السّلام المسدّي، اللّسانيّات وأسسها المعرفيّة، الدّار التّونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دت، ص 15-16.

[12] للتّوسّع: يُنظر: عبد السلام المسدّي، المرجع نفسه، ص 39 وما بعدها.

[13] عبد السلام المسدي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، ص 107.

[14] للتّوسّع: يُنظر: عبد السلام المسدي، المرجع نفسه، ص 214 وما بعدها.

[15] يُنظَر:عبد السلام المسدّي، حد اللّغة في التراث اللّساني العربي، ندوة تقدم اللّسانيات في الأقطار العربيّة، وقائع ندوة جهوية، أبريل،1997، بالرّباط، دار العرب الاسلامي، بيروت، لبنان،ط1، 1991، ص 401 و415.

[16] مازن الوعر، قضايا أساسيّة في علم اللّسانيات الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1988، ص 184 -185.

[17] يُنظر: مازن الوعر، قضايا أساسيّة في علم اللّسانيات الحديث، ص 328 – 329.

[18] يُنظر: مازن الوعر، المرجع نفسه، ص 517.

[19] يُنظر: مازن الوعر، المرجع نفسه، ص 521-522.

[20] يُنظر:مازن الوعر، المرجع نفسه، ص 556.

[21] يُنظر: مازن الوعر، المرجع نفسه، ص 548 وما بعدها، وللتّوسّع أكثر يُنظر مبحث من هذا المرجع، بعنوان (الجاحظ والأمراض اللّغويّة).

[22] ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسيّة مع مقارنة تراثيّة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 105 -106.

[23] للتوسّع: ينظر: ميشال زكريا، المرجع نفسه، ص 111 وما بعدها، وللتّوسّع أكثر يُنظر فصل من هذا المؤلَّف بوسام (قضايا ألسنيّة تراثيّة).

[24] للتوسّع يُنظر: صالح بلعيد، التّراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، ط5، 1994، مبحث (موازنة آراء الجرجاني ببعض النّظريّات اللّسانيّة الحديثة).

[25] محمّد صاري، قراءة في الكتابة اللّسانية العربيّة الحديثة، المجلّة الأردنيّة في اللّغة العربية وآدابها، المجلّد الرّابع(العدد 4)، الأردن، تشرين الأوّل 2008م، ص 184.

[26] محمّد صاري، المرجع نفسه، ص 185 وما بعدها.

[27] محمّد صاري، المرجع نفسه، ص 187.

[28] يُنظر: تمّام حسان،الأصول، دراسة ابستيميولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2000، ص 167.

[29] للتّوسع: يُنظر: تمّام حسان، اللّغة بين الوصفيّة والمعياريّة، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب،1992، ص 65 وما بعدها.

[30] يُنظر: المرجع نفسه، ص 32 وما بعدها.

[31] يُنظر: تمّام حسان، الأصول، دراسة ابستيميولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب، ص90.

[32] للتّوسّع: يُنظر: مصطفى غلفان،من أجل لسانيّات العربيّة، إشكاليّة الموضوع، مجلّة اللّسانيّات واللّغة العربيّة،العدد الأوّل، مخبر اللّسانيّات واللّغة العربيّة، جامعة عنّابة، الجزائر، جوان 2006،ص 59 وما بعدها.

[33] يُنظر: عبد السّلام شقروش، البحث اللّساني العربي بين المرجعيّة التّراثيّة و الإجرائيّة الحديثة، مجلّة اللّسانيّات واللّغة العربيّة، العدد الثّالث، مخبر اللّسانيّات واللّغة العربيّة، جامعة عنّابة، الجزائر، جوان 2007،ص 49 وما بعدها.

[34] يُنظر: الأصول، دراسة ابستيمولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب، ص 20.

[35] تمّام حسّان، مناهج البحث في اللّغة، دار الثّقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 203 – 204.

7. قائمة مصادر البحث ومراجعه:

-تمّام حسّان:

1- مناهج البحث في اللّغة، دار الثّقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1986.

2-اللّغة بين الوصفيّة والمعياريّة، دار الثّقافة، الدّار البيضاء، المغرب،1992.

3-الأصول، دراسة ابستيميولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2000.

-عبد الرّحمان الحاج صالح:

4-بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، موفم للنشر، الجزائر، 2007، الجزء الأوّل .

5-بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، موفم للنّشر، الجزائر،2007، الجزء الثّاني .

6-بحوث ودراسات في علوم اللّسان، موفم للنشر، الجزائر، 2007.

7-السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، 2007.

8-عبد السّلام شقروش، البحث اللّساني العربي بين المرجعيّة التّراثيّة والإجرائيّة الحديثة، مجلّة اللّسانيّات واللّغة العربيّة، العدد الثّالث، مخبر اللّسانيّات و اللّغة العربيّة، جامعة عنّابة، الجزائر، جوان 2007.

-عبد السّلام المسدّي:

9-التفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، الدار العربيّة للكتاب، ليبيا ، تونس، ط2، 1986.

10-حد اللّغة في التّراث اللّساني العربي، تقدم اللّسانيات في الأقطار العربيّة، وقائع ندوة جهوية، أبريل،1997، بالرّباط ، دار العرب الاسلامي، بيروت، لبنان،ط1، 1991.

11-اللّسانيّات وأسسها المعرفيّة، الدّار التّونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، دت.

12-صالح بلعيد، التّراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند عبد القاهر الجرجاني، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بن عكنون، الجزائر، ط5، 1994.

13-مازن الوعر، قضايا أساسيّة في علم اللّسانيات الحديث، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1988.

14-محمّد صاري، قراءة في الكتابة اللّسانية العربيّة الحديثة، المجلّة الأردنيّة في اللّغة العربية وآدابها، المجلّد الرّابع(العدد 4)، الأردن، تشرين الأوّل 2008.

15-مصطفى غلفان، من أجل لسانيّات العربيّة، إشكاليّة الموضوع، مجلّة اللّسانيّات واللّغة العربيّة،العدد الأوّل، مخبر اللّسانيّات واللّغة العربيّة، جامعة عنّابة، الجزائر، جوان 2006.

16-ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسيّة مع مقارنة تراثيّة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1993.